علم البديع عند الزمخشري
(من خلال كتابه الكشاف)

د. عبدالمحمود عبدالله سعد•

مستخلص

هذا البحث في علم البديع عند الزمخشري (من خلال كتابه الكشاف) ، يهدف إلى التعرف على علم البديع من حيث النشأة ، بالإضافة لتفسيرات الزمخشري لآي القرآن الكريم المرتبطة بعلم البديع. اتبع الباحث المنهج الاستقرائي ، والاستنباطي ، وكذلك المنهج التاريخي ، واستند البحث على أهم المصادر والمراجع ذات الصلة بموضوع البحث. توصل البحث إلى عدة نتائج من أهمها: إنّ ترتيب علوم البلاغة الثلاثة تاريخياً كان على النحو التالي : أولاً: علم البيان ، ثم علم البديع وأخيراً علم المعاني. إنّ علوم البلاغة في نشأتها عبارة عن علم واحد ، بل وقدّر لمسائل البلاغة أنّ لا تستقر حتي اليوم في علومها. يوصي الباحث بالاهتمام بالبحث في علوم البلاغة وخاصة من خلال النصوص القرآنية لما فيها من متعة وعمق وذكاء.

• أستاذ اللغة العربية وآدابها ، كلية العلم الإسلامية العربية ، جامعة وداي النيل.

مقدمة

إذا نظرنا إلى علم البديع من حيث النشأة من بين علوم البلاغة الثلاثة البيان والبديع والمعاني نجد أنّ الجاحظ المتوفى في منتصف القرن الثالث الهجري له كتاب بعنوان (البيان والتبيين) ودلالة العنوان ظاهرة في أنه يلم بعلم البيان وكذلك نجد الشاعر العباسي ابن المعتز المتوفي في أواخر القرن الثالث الهجري له كتاب (البديع) وهنا واضح أنه ألف في علم البديع، والإمام عبد القاهر الجرجاني المتوفي في القرن الخامس الهجري له مؤلف باسم (دلائل الإعجاز) وهو في علم المعاني إذن ترتيب علوم البلاغة الثلاثة تاريخياً كان علي النحو التالي أولاً علم البيان، ثم علم البديع وأخيراً علم المعاني. فلا ينفرد كتاب واحد مما ذكرنا خالصاً بفن بلاغي بعينه، فالبيان يضم مسائل في علم المعاني والبديع كذلك شأن الكتب الأخرى، وهذا طبيعي في نشأة العلوم أنّ تختلط موضوعاتها في البداية ثم تتبلور بعد زمن، بل وقدر لمسائل البلاغة أنّ لا تستقر في علومها حتى اليوم، وصدق فيها قول مؤرخي العلوم العربية (إنّ من العلوم ما نضج واحترق وهو علم النحو، ومنها ما لا نضج ولا احترق وهو علم البلاغة)[1].

معنى كلمة البديع لغةً واصطلاحاً:

أ. **البديع لغةً:** بدع: بدع الشيء ببدعه بدعاً، وابتدعه: أنشاءه وبدأه.

البديع: المحدث العجيب، والبديع: المبدع، وأبدعت الشيء: اخترعته.

والبديع: من أسماء الله تعالي لإبداعه الأشياء، وإحداثه أياها وهو البديع الأول قبل كل شيء ويجوز أنْ يكون بمعنى مبدع أو يكون من بدع الخلق أي بدأه[2].

ب. **اصطلاحاً**: هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة[3].

وقد عرفه ابن خلدون بقوله: (هو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق، أما بسجع يفصله، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه، أو ترصيع يقطع أوزانه، أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما، أو طباق بالتقابل بين الأضداد وأمثال ذلك) [4].

وعلم البديع أحد علوم البلاغة العربية وقد ظهرت أولياته في محاولة قام بها شاعر عباسي من أبناء الأنصار أولع بالبديع في شعره واشتهر بإجادة المدح. ألا وهو الشاعر مسلم بن الوليد:

ومن أمثلة ذلك قوله في مدح يزيد بن مزيد:

تلقى المنية في أمثـال عدتهـا كالسيف يقذف جلموداً بجلمود

تجود بالنفس إنّ ضن الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود[5].

ونجد أيضاً الجناس في قوله (جلموداً – بجلمود)، والطباق في قوله (تجود-ضن). وقوله أيضاً:

موف علي مهج في يوم ذي رهج كأنـه أجـل يسعى إلى أمل

ينال بالرفق ما تعيا الرجال به كالموت مستعجلاً يأتي على مهل[6]

جناس غير تام بين كلمتي (أجل – أمل).

وقد قال الأصفهاني في مسلم بن الوليد: (فقد جاء مسلم بهذا الذي سماه الناس البديع) [7]. وقد أشار الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) إلى البديع بقوله: (والبديع مقصور على العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة، وأربت على كل لسان والشاعر الراعي النميري كثير البديع في شعره، وبشار حسن البديع، والعتابي يذهب في شعره مذهب بشار)[8]. وكلمة البديع عند الجاحظ تعني الصور والمحسنات اللفظية والمعنوية وإنّ كان لم يوضحها توضيحاً دقيقاً كما يقول الدكتور عبد العزيز عتيق[9].

ولعل أول محاولة علمية جادة في ميدان علم البديع هي تلك المحاولة التي قام بها الخليفة أبو العباس عبد الله بن المعتز، فقد كان شاعراً مطبوعاً مقتدراً على الشعر مغرماً بالبديع[10]. ولئن كان عبد القاهر الجرجاني صاحب كتابي (دلائل الإعجاز- وأسرار البلاغة) هو واضع نظرية علم البيان وعلم المعاني، فإنّ عبد الله بن المعتز هو واضع علم البديع كما يفهم ذلك من كتابه المسمى (كتاب البديع) الذي ألفه سنة 274هـ، وقد ألف ابن المعتز هذا الكتاب رداً على من زعم من معاصريه أنّ بشار بن برد ومسلم بن الوليد الأنصاري، وأبا نواس هم السابقون إلي استعمال البديع في شعرهم، وعند ذلك يقول في مقدمة

---

[1]) د. المصطفى الصاوي الجويني، البديع لغة الموسيقى والزخرف، 1993م، دار المعرفة الجامعية الاسكندرية، ص 7.

[2]) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ج8، ص 6.

[3]) عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح لتخليص المفتاح، مكتبة الآداب، الطبعة 1997م، الجزء الرابع، ص 3.

[4]) ابن خلدون– المقدمة– دار الفكر العربي – ط 1406هـ– ص 1066.

[5]) أبو الفرج الأصفهاني– الأغاني– دار المكتبة العلمية– بيروت، ج9– ص 31

[6]) أو الفرج الأصفهاني– الأغاني– دار المكتبة العلمية– بيروت، ج19– ص 31

[7]) المرجع السابق، ج19، ص31.

[8]) الجاحظ– البيان والتبيين– تحقيق عبد السلام محمد هارون– ب– ط– 1405هـ– 1985م، مكتبة الخانجي– القاهرة– ج4، ص 55.

[9]) عبد العزيز عتيق– علم البديع– دار النهضة العربية– 1405هـ – 1985م.، ص 12.

[10]) ابن المعتز البديع ، تحقيق كراتشوفسكي، ط3، 1983م، دار الخبرة، بيروت، ص 1.

كتابه: (قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث الرسول (ρ) وكلام الصحابة، والأعراب غيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون بديعاً، ليعلم أنّ بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن تقيَّلهم[11] ومن سلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن، ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمى بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه) [12].
ويشير في موضع آخر إلى غرضه من تأليف الكتاب فيقول: (وإنما غرضنا في هذا الكتاب تعريف الناس أنّ المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع)[13].
وفي موضع ثالث يشير إلى أنه أول من نظم وجمع فنون هذا العلم فيقول (وما جمع فنون البديع ولا سبقني اليه أحد وألفته سنة أربع وسبعين ومائتين) [14]. ولعلنا إذا نظرنا أي كتاب "البديع" نجد أنّ ابن المعتز أول من قام بالمحاولة الأولى لوضع اللبنات الأولى لهذا العلم. كما لفت الأنظار إلى أنّ البديع كان موجوداً في أشعار الجاهلية وصدر الإسلام ولكنه كان مفرقاً يأتي عفواً ثم جاء الشعراء المحدثون من أمثال بشار ومسلم بن الوليد وابي نواس وأبي تمام فأكثروا منه في أشعارهم. وتلك بلا شك محاولة جادة ورثها النقاد والبلاغيون من بعده وأضافوا إليها واستكملوا بها مباحث هذا العلم وقضاياه .
ومن الذين أتوا بعده في هذا المنهاج قدامة بن جعفر الذي أورد في كتابه "نقد الشعر" الكثير من المحسنات البديعية، وكذلك أبو هلال العسكري صاحب كتاب "الصناعتين"[15] وأبو علي الحسن بن رشيف القيرواني صاحب كتاب "العمدة في محاسن الشعر وآدابه"[16]. وابن سنان الخفاجي صاحب كتاب "سر الفصاحة" الذي يرجع إليه الفضل في تقسيم المحسنات إلى لفظية ومعنوية[17].
ومنهم أيضاً عبد القاهر الجرجاني الذي وضع علم المعاني في كتابه "دلائل الإعجاز" ونظرية علم البيان في كتابه "أسرار البلاغة". وأثبتت أنّ العلم لا يرجع إلى جمال الألفاظ من حيث هي وإنما يرجع إلى ترتيب المعاني مع الألفاظ في الذهن ترتيباً يؤثر في النفس[18] أي انتظام الألفاظ مع المعاني في سياق لغوي واحد.
ومما تقدم من تعريفات وايضاحات يتضح لنا جلياً أنّ تعريف ابن خلدون كان تعريفاً شاملاً وواضحاً ومفصلاً كاد أنّ يحصر كل فروع علم البديع فيه.

البديع عند الزمخشري

أخذت فنون البديع في ازدياد مضطرد منذ القرن الخامس الهجري بفضل الإمام عبد القاهر الجرجاني الذي يُعد بحق وحقيقة مؤسس البلاغة العربية ومشيد أركانها، وقد سار على نهجه البلاغيون من بعده لا سيما الزمخشري الذي أكمل البنيات بتأليفه كتابه المسمى " الكشاف". وقد طبق الزمخشري في كشافه هذا كل ما أهتدي إليه الإمام عبد القاهر الجرجاني من القواعد البلاغية خير تطبيق، وقد أتخذ الزمخشري من آي الذكر الحكيم أمثلة وشواهد يوضح بها ما استوعبه من قواعد عبد القاهر البلاغية، سواء ما اتصل منها بعلم المعاني ، أو علم البيان، أو علم البديع.
ولئن كان عبد القاهر هو مؤسس علم المعاني وعلم البيان، وهو المستنبط جزئيات الكثير من قواعده، فإنّ الزمخشري هو من أكمل هذه القواعد بإضافاته الجديدة التي وفق إليها وجاءت مفرقة في تفسيره الكشاف وهكذا استطاع الرجلان أنْ يضعا ويكملا قواعد هذا العلم ولم يتركا لمن جاء بعدهما إلا التبويب والترتيب.
ومما تجدر الإشارة إليه هنا، هو أنّ بعض الباحثين يرون أنّ المتكلمين منذ الباقلاني إلى عبد القاهر الجرجاني ممن عنوا بإعجاز القرآن قد نحُّوا البديع عن مباحث أسرار البلاغة في القرآن الكريم لأنه في رأيهم لا يدخل في قضية الإعجاز القرآني، نظراً لأنّ كثير من فنونه مستحدث، وما ورد منه في القرآن الكريم إنما جاء دون قصد وتكلف، ويرون أنّ الزمخشري قد سار على هذا النهج، فهو لا يعني في تفسيره "الكشاف" بما جاء في آيات القرآن الكريم من بديع إلا عرضاً، ولم يكن يعد البديع علماً مستقلاً من علوم البلاغة وإنما يعده ذيلاً لها، وهذا هو السبب في عدم وقوفه طويلاً أمام ما ورد في القرآن الكريم من فنون بديعية.
ومن أول هؤلاء الباحثين الدكتور مصطفى الصاوي الجويني الذي يقول: (يرى الزمخشري أنّ القرآن الكريم مختص بعلمين هما المعاني والبيان، وهو في هذا يتأثر بعبد القاهر الجرجاني الذي يرى مزية الكلام الجمالية في معناه، وأما اللفظ فهو

---

[11]) تقيَّلهم، حاول التشبه بهم.
[12]) ابن المعتز- البديع- ص 1.
[13]) المرجع السابق ، ص 3.
[14]) المرجع السابق، ص 58.
[15]) أبو هلال العسكري، الصناعتين، تحقيق محمد علي البجاوي ومحمد أبو العقد، مطبعة الحلبي القاهرة ط 1971، ص 266- 430.
[16]) ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وأدبه، تقيق محمد عبد القادر أحمد عطا، الطبعة الأولي 1422هـ - 2001م، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ج1 ، ص 232- 236.
[17]) ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، مطبعة صبيح، ص 110.
[18]) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، شرح وتعليق محد عبد المنعم خفاجي الطبعة الثانية ، 1399هـ - 1979م ،مكتبة القاهرة، ص 4- 5- 13.

خادم المعنى، ولهذا فلن تظفر هنا بأكثر من ثلاثة ضروب من أضرب البديع على كثرتها، وليس الزمخشري بهذا منكر للصنعة البديعة، فيها يحسن الكلام، ولكنها قشر بجانب اللُّب، وما اللُّب إلا الظلال المعنوية والنفسية التي يوحيها نظم الكلام[19].

ويتجه الدكتور شوقي ضيف أيضاً هذا الاتجاه فيقول: (وكانت كلمة البيان كما قدمنا قد ترددت على لسان عبد القاهر في فاتحة كتابة "أسرار البلاغة" فاتخذها الزمخشري على مباحثه فيه، فهي مباحث تناولت في تفصيل التشبيه والاستعارة والمجاز بنوعية اللغوي والعقلي أو الاسنادي الحكمي، وبذلك كان الزمخشري أول مَنْ ميز بين هذين العلمين فجعل لكل منهما مباحثه الخاصة، لأنه لم يكن يعد البديع علماً مستقلاً بل كان يراه ذيلاً لعلمي المعاني والبيان[20].

ويقول في موضع آخر: (رأينا المتكلمين في القرن الخامس من الباقلانى إلى عبد القاهر الجرجاني ينحون البديع عن مباحث أسرار البلاغة في الذكر الحكيم وقد مضي عبد القاهر يكتشف نظرية المعاني ويضع نظرية البيان بمتشابكاتها الكثيرة، وعرض في تضاعيفها إلى السجع والجناس وحسن التعليل والطباق ولكنه لم يعن بعد ذلك بتفصيل القول في ألوان البديع، إذ كان يرى كما يرى المتكلمون من قبله أنه لا يدخل في قضية الإعجاز القرآني لأنّ كثيراً من ألوانه مستحدث، وما جاء في القرآن الكريم إنما جاء دون تأت له وتكلف ومضي الزمخشري على هذا الهدي لا يعني بما جاء في الآية الكريمة من بديع إلا عرضاً، ونري السيد الجرجاني ينقل عنهم كما مر بنا أنه لم يكن يعد البديع علماً مستقلاً من علوم البلاغة وإنما كان يعده ذيلاً متمماً لها وتتمة تحمل عليها ، وكانت هذه النظرة إلى البديع سبباً في أنْ لا يطيل النظر في ألوانه القرآنية، وأنْ لا يلم بها إلا في الحين البعيد بعد الحين، وإذا ألم بها مسها في خفة .[21]

وقد فند الدكتور محمد أبو موسى هذه الآراء بقوله: (وقد يكون من أهم ما دفع هؤلاء جميعاً إلى القول بأنّ ألوان البديع لا تدخل في بلاغة القرآن عند الزمخشري أنهم وقفوا عند كلامه في التجانس وأخذوا منه ظاهره، فالزمخشري عند تعرضه لقوله تعالي: [قِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ][22]. وبعد ما ذكر فيها من نكت وأسرار يقول : (ولما ذكرنا من المعاني والنكت استصفح علماء البيان هذه الآية ورقصوا لها رؤوسهم، لا لتجانس الكلمتين وهما قوله.."أبلعي" و"أقلعي" وذلك وإنْ كان لا يخلي الكلام من حسن، فهو كغير الملتفت إليه بإزاء تلك المحاسن التي هي اللُّب وما عداها قشور)[23]. فقد يتوهم أنّ الزمخشري بهذا يضع من مكانة ألوان البديع في الإعجاز القرآني، والحق أننا لا نسمع منه هذه النغمة إلا في فن الجناس، وذلك راجع الى انصراف اهتمام الأدباء والشعراء في عصره الى هذا الفن حتى صار صناعة ثقيلة متكلفة، فهو بهذا يشير إلى أنّ ما جاء في القرآن من هذا اللون الذي فتنتم به لم يكن هو وحده سر بلاغة كما جعلتموه سر بلاغتكم[24].

والحق مع الدكتور ابي موسى، فالزمخشري لم يهمل البديع بل هو ظاهر في كشافه ولكن مباحثه قد تكون قليلة إذا ما قورنت بمباحث علمي المعاني والبيان.

وقد أضاف الزمخشري إلى علم البديع إضافات بلاغية جديدة جاءت متفرقة في تفسيره (الكشاف) فقد تحدث عن الطباق، والمقابلة، والمشاكلة، واللف والنشر والالتفات وتأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه والاستطراد والكلام الموجه، والإدماج والتفصيل والجناس والازدواج وغير ذلك مما جعله المتأخرون من مباحث علم البديع، وقد أشار الزمخشري كذلك إلى بلاغة هذه المباحث وإلى أنها فن من كلام العرب بديع وطراز عجيب، وإلى أنها مستغرب فنون البلاغة، وذلك في مثل قوله في المشاكلة (ولله در التنزيل وإحاطته بفنون البلاغة، وشعبها، لا تكاد تستغرب منه فناً إلا عثرت عليه فيه علي أقوام مناهجه وأسدِّ مدارجه)[25].

وقد ذكر الزمخشري اعجاب شريح القاضي ببلاغة الشاهد الذي راعى المشاكلة فقال شريح: إنك لسبط الشهادة، فقال الرجل: إنها لم تجعُد عني، فقال له شريح: لله بلادك وقبل شهادته[26].

وسوف نتعرض لأقسام علم البديع في كتاب الكشاف للزمخشري وفقاً لتقسيمات علماء البلاغة الذين قسموا البديع إلى قسمين قسم يرجع إلى تحسين المعنى وهو ما يسمى بالمحسنات المعنوية، وقسم آخر يرجع إلى تحسين اللفظ وهو ما يسمى بالمحسنات اللفظية.

---

[19]) مصطفى الجويني: منهج الزمخشري في تفسير القرآن الكريم، الطبعة الثالثة، دار المعارف عين شمس ص 259.

[20]) شوقي ضيف – البلاغة تطور وتاريخ- الطبعة السابعة – دار المعارف- القاهرة – ط 1965م، ص 221 – 222.

[21]) المرجع السابق، ص 256.

[22]) سورة هود، الآية 44.

[23]) الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، دار المعرفة بيروت لبنان ، ج2 ص 218.

[24]) محمد محمد أبو موسي، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، الطبعة الثالثة، 1408هـ- 1988م، مطبعة وهبة القاهرة، ص 573.

[25]) الزمخشري- الكشاف، ج1، ص 55.

1. الزمخشري، الكشاف ، ج1، ص 55.

المحسنات المعنوية – المقابلة والطباق

1. **المقابلة:**

يُعد قدامة بن جعفر من أوائل الذين تحدثوا عن المقابلة، وذلك في قوله: (والذي يسمى به الشعر فائقاً ويكون إذا اجتمع فيه مستحسناً صحة المقابلة ...)[27] وقد عرفها في كتابه (نقد الشعر) بقوله: (وصحة المقابلة أنّ يضع الشاعر معاني يريد التوفيق أو المخالفة بين بعضها...)[28]

وقد عرفها أبو هلال العسكري بقوله: (هي ايراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعني واللفظ على وجه الموافقة أو المخالفة نحو قوله تعالى .. (وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ][29] فالمكر من الله تعالى هو العذاب ، جعله الله عز وجل مقابلة لمكرهم بأنبيائه وأهل طاعته.

وعرفها ابن رشيق القيرواني بقوله: (هي ترتيب على ما يجب، فيعطي أول الكلام ما يليق به أولاً، وآخره بما يليق به آخراً، ويؤتي في الموافق بما يوافقه وفي المخالف بما يخالفه، وأكثر ما تجئ المقابلة في الاضداد، فإذا جاوز الطباق ضدين كان مقابلة [30].

وعرفها الخطيب القزويني في كتابه (التلخيص) بقوله :(هي أنْ يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر ثم يقابل ذلك على الترتيب)[31].

ومما سبق من تعاريف مختلفة للمقابلة، يعتبر تعريف القزويني هو أكثر وضوحاً وانتشاراً من بين التعريفات السابقة. ومن التعاريف السابقة يمكن القول بأنّ المقابلة هي أنْ يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر ثم بما يقابل ذلك على الترتيب، كقوله تعالى :[فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ]. ولعلنا إذا لاحظنا في الآية السابقة نجد المقابلة واضحة بين (فَلْيَضْحَكُوا : و وَلْيَبْكُوا) و (قَلِيلاً : و كَثِيراً).

وقد عرض الزمخشري كثيراً من صور المقابلة في تفسيره لآى الذكر الحكيم وهو كبعض البلاغيين ويجعل المقابلة نوعاً من المطابقة[32]. فعند تعرضه لقوله تعالى:[وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ][33]. يقول الإمام الزمخشري في ذلك: (ولقد تقابل الاستبشار والاشمئزاز إذ كل واحد منهما غاية في بابه، لأنّ الاستبشار أنْ يمتلئ قلبه سروراً حتى تنبسط به بشرة وجهه ويتهلل، والاشمئزاز أنّ يمتلئ غيظاً حتى يظهر الانقباض في أديم وجهه)[34].

وقد تكون المقابلة عند الزمخشري بمعنى الموافقة في نظم الجمل، فقد جعل ذلك في قوله تعالى : (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ)[35].

إذ يقول:(فإن قلت: لم قرن الليل بالمفعول به والنهار بالحال؟ وهل كانا حالين أو مفعولين بهما فيراعي حق المقابلة؟ قلت: هما متقابلان من حيث المعنى، لأنّ كل واحد منهما يؤدي مؤدي الآخر، ولأنه لو قيل: لتبصروا فيه فاتت الفصاحة التي في الإسناد المجازي، ولو قيل: سكناً والليل يجوز أنّ يوصف بالسكون على الحقيقة، ألا ترى إلى قولهم: ليل ساج وساكن لا ريح فيه، لم تتميز الحقيقة من المجاز[36] .

2. **الطباق:**

ويسمى أيضاً المقابلة والتضاد والتكافؤ، وهو في اللغة الموافقة، يقال طابقت بين شيئين أو جمعت بينهما على حذو واحد، وفي الاصطلاح هو الجمع بين المتضادين أو الجمع بين الشيء وضده.[37] مثل قوله تعالى: [وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيد لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً][38].

---

2. قدامة بن جعفر – نقد الشعر تحقيق محمد مصطفي . الطبعة الاولى مكتبة الخانجي – ص133.
3. –المرجع السابق، ص133.
3. سورة النمل، اية رقم (50).
4 . ابو هلال العسكري – الصناعتين ص337.
5. ابن رشيق القيرواني – العمدة – ج2 ، ص 14.
6. سورة التوبة الآية رقم 82

[32]. عبد العزيز عتيق – علم البديع – ص 86.
[33]. سورة الزمر الآية 45.
[34]. الزمخشري – الكشاف – ج3 ، ص 349.
[35]. سورة غافر – الآية 61.
[36]. الزمخشري – الكشاف – ج3 ، ص 376.
[37]. عبد المتعال الصعيدي – بقية الإيضاح – ج4 ، ص 4.

ولعل الطباق في هذه الآية الكريمة واضح بين الكلمتين (أيقاظاً- رقوداً) و (اليمين- الشمال). وكذلك نجد في قول أمرئ القيس:

مكر مفر مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطه السيل من علٍ [39]

والطباق أيضاً موجود بين الكلمات الآتية: (مكر- مفر) و (مقبل - مدبر).

وقد ورد هذا المحسن البديعي عند الزمخشري في كتابه (الكشاف) في كثير من المواضع، فمثلاً عند تعرضه لقوله تعالى:(مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ) [40]يقول: (شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع وهو من اللف والطباق) [41]. والطباق واضح من هذا التفسير بين "الأعمى والبصير والأصم والسميع " وقد يذكر الطباق ويراد به موافقة الكلمات ومعانيها، فالكلام المطابق هو الذي تنزل في الأحوال على وفق المعاني، مثال ذلك قوله تعالى: [هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ] [42].

يوضح الزمخشري ذلك فيقول: (وقال: (ليسكن) فذكر بعد ما أنث في قوله: (واحدة)، (منها زوجها) ذهاباً إلى معنى النفس ليبين أنّ المراد بها آدم، ولأنّ الذكر هو الذي يسكن إلى الأنثى ويتغشاها، فكان التذكير أحسن طبقاً للمعنى) [43].

ومن شرح الزمخشري للآية يتضح لنا الطباق كان بين (الذكر والأنثى) ومن الطباق عنده كذلك قوله تعالى : (الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)[44]. إذ يقول: (وفيه طباق حسن لأنّ المعنى أحكمها حكيم وفصلها) [45].

ومن كلام الزمخشري يكون الطباق بين (الأحكام- التفصيل). وكذلك تعرض الزمخشري لقوله تعالى: (وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ)[46]. يقول الزمخشري: (فإنّ قلت: هلا قيل: على قلوبنا أكنة كما قيل: (وفي آذاننا وقر) ليكون الكلام على نمط واحد؟ قلت: هو على نمط واحد، لأنه لا فرق في المعنى بين قولك: قلوبنا في أكنة وعلى قلوبنا أكنة والدليل عليه قوله تعالى: (إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً)[47]. ولو قيل: إنا جعلنا في قلوبهم أكنة لم يختلف المعنى)[48]. ولعلنا نلاحظ قد جعل الزمخشري الطباق بين (في قلوبهم – على قلوبهم). وفي هذا الطباق قوله تعالى: (وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم)[49]

حيث يقول الزمخشري: (فإنْ قلت: كيف طابق قوله: (لم تكونوا بالغيه) وقوله: (وتحمل أثقالكم) ؟ وهلا قيل: لم تكونوا حامليها إليه، قلت: طباقه من حيث أنّ معناه : وتحمل أثقالكم إلى بلد بعيد قد علمتم لا تبلغونه بأنفسكم إلا بجهد ومشقة فضلاً أنّ تحملوا على ظهوركم أثقالكم. ويجوز أنّ يكون المعنى: لم تكونوا بالغية بها إلا بشق الأنفس) ولعل الطباق هنا من حيث المعنى (البلد البعيد- كثرة الحمل)[50].

3. **الالتفات:**

يُعد الأصمعي أول مَنْ ذكر الالتفات، فقد حكى عن أسحق الموصلي أنّه قال: قال لي الأصمعي: أتعرف التفات جرير؟ قلت ما هو؟ فأنشدني قوله:

أتنسى إذ تودعنا سليمي بعوذ بشامة؟ سُقي البشام[51]

أما تراه مقبلاً على شعره، إذا ألتفت إلى البشام فدعا له[52]. وقد عرّف ابن المعتز الالتفات وعده من محاسن الكلام وبديعه، وذلك بقوله: (الالتفات هو انصراف المتكلم عن المخاطبة للإخبار وعن الإخبار الى المخاطبة وما يشبه ذلك، ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر)[53].

---

[38]. سورة الكهف الآية:18.
[39]. أمرؤ القيس – الديوان – تحقيق أحمد أبي الفضل – دار صادر – بيروت 2005، ص 52.
[40]. سورة هود، آية رقم (24) .
[41]. الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 212 .
[42]. سورة الأعراف، آية رقم (189) .
[43]. الزمخشري ،الكشاف، ج2، ص 108 .
[44]. سورة هود الآية:1.
[45]. الزمخشري ، الكشاف، ج2، ص 207.
[46]. سورة فصلت الآية:5.
[47]. سورة الكهف الآية:57.
[48]. الزمخشري- الكشاف – ج 3 – 383.
[49]. سورة النحل الآية:7.
[50]. الزمخشري، الكشاف ج 2، ص 322.
[51]. ابن رشيق القيرواني – العمدة – ج2 ، ص 44. البشام: شجر ذو ساق وأفنان وورق ولا ثمر له.
[52]. المرجع السابق – ج2 ، ص 44.
[53]. ابن المعتز – البديع – ص 58.

وعرّفه قدامة بن جعفر بقوله: (الالتفات أنْ يكون الشاعر آخذاً في معنى فيعترضه إما شك فيه أو ظن بأنّ راداً عليه قوله أو سائلاً يسأله عن سببه فيعود راجعاً إلى ما قدمه بمعنى إليه بعد فراغه، فأما أنْ يذكر سببه أو يُجلى الشك فيه)[54]. وعرّفه ضياء الدين بن الأثير تعريفاً دقيقاً موضحاً أسراره البلاغية بقوله: (وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله، فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة لأنه ينتقل فيه من صيغة إلى صيغة، كالانتقالات من خطاب حاضر إلى غائب، أو من خطاب غائب إلى حاضر أو من فعل ماضي إلى مستقبل، أو من مستقبل إلى ماضي أو غير ذلك... ويسمى أيضاً (شجاعة العربية) وإنما سمي ذلك لأنّ الشجاعة هي الإقدام، وأنّ الرجل الشجاع يركب مالا يستطيعه غيره، ويتورد ما لا يتورده سواه، وكذلك هذا الالتفات في الكلام، فإنّ اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات[55].

والالتفات كما قسمه ابن الأثير **ثلاثة أقسام هي:**

أولاً: الرجوع من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، نحو قوله تعالى: (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً*لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً][56] ، فقد قيل: (لقد جئتم) وهو خطاب الحاضر بعد قوله (اتخذ الرحمن ولداً) وهو خطاب للغائب وقوله تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ][57] . فقد قيل: (فآمنوا بالله ورسوله) ولم يقل: فآمنوا بالله وبي، عطفاً على قوله:(إني رسول الله إليكم جميعاً) ، فقد أخرج الكلام من الخطاب إلى الغيبة)[58].

ثانياً: الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر، وعن الفعل الماضي إلى فعل الأمر، فمن الأول، قوله تعالى: (قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (53) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ][59] . قد قال (أُشهد الله واشهدوا) ولم يقل (أشهدكم) وهذا انتقال من المستقبل إلى الأمر. ومن الثاني قوله تعالى:

(قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ][60] .

فالتقدير: أمر ربي بالقسط وبإقامة وجوهكم عند كل مسجد، فعدل عن ذلك بالالتفات إلى فعل الأمر.

ثالثاً: الإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل وعن المستقبل بالفعل الماضي فمن الأول قوله تعالى: (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ][61] فقوله (فتثير) مستقبلاً وما قبله وما بعده ماضي. ومن الثاني قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)[62] ، فقد عطف الفعل المستقبل (يصدون) على الماضي (كفروا) لأن كفرهم كان موجوداً ولم يستجدوا بعده كفراً ثانياً، وصدهم عن سبيل الله متجدد ومستمر على مر الأيام وفي كل حين[63].

وقد تحدث الزمخشري عن هذا الأسلوب مشيراً إلى قيمته البلاغية بالطريقة المفصلة الواضحة التي جرت كتب المتأخرين من البلاغيين على منوالها، وقد أدرك الزمخشري أنّ إيقاظ النفس وتحريكها من أهم أغراض الكلام، فهو يرى أنّ الالتفات يزيد النفس تشبيهاً وإيقاظاً وتحريكاً وقد تعرض الزمخشري للالتفات في قوله تعالى:(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ][64] . إذ يقول: (فإن قلت: لم عدل من لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ قلت: هذا يسمى الالتفات ... قد يكون من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى المتكلم، كقوله تعالى:(حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ][65] . وقوله تعالى :(وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ][66] .

والتفت أمرؤ القيس ثلاثة التفاتات في ثلاثة أبيات في قوله:

تطاول ليلك بالإثمد ونام الخلي ولم ترقد

---

54. قدامة بن جعفر – نقد الشعر ، ص 106.
55. ضياء الدين بن الأثير– المثل السائر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية – صيدا – بيروت . ج2 ، ص3.
56. سورة مريم الآية:89.
57. سورة لأعراف الآية:158.
58. عبد العزيز عتيق – علم البديع ، ص 150.
59. سورة هود الآيتان: (53–54).
60. سورة الأعراف الآية: 29.
61. سورة فاطر الآية:9.
62. سورة الحج الآية:25.
63. عبد العزيز عتيق – علم البديع – ص، 150–160.
64. سورة الفاتحة الآيتان: (4–5)
65. سورة يونس الآية:22.
66. سورة فاطر الآية:9.

وبات وباتت له ليلي كليلة وبي العائر الأرمد
وذلك من نبأ جاءني وخبرته عن أبي الأسود[67]

وذلك على عادة افتتانهم في الكلام وتصرفهم فيه، لأنّ الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان أحسن نظرية لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء وإليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختص مواضعه بفوائد، ومما اختص به هذا الموضع أنه لما ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات، فخطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل: إياك يا مَنْ صفاته نخصَّ بالعبادة والاستعانة، لا نعبد غيرك ولا نستعينه، ليكون الخطاب أدل على أنّ العبادة له التميز الذي لا تحق العبادة إلا به.)[68]

ويعود الزمخشري مرة أخرى في موضع آخر فيبين فائدة الالتفات البلاغية ومالها من أثر في نفس السامع، فعند تعرضه لقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ][69]. يقول: (لما عدد الله تعالى فرق المكلفين من المؤمنين والكفار والمنافقين وذكر صفاتهم وأحوالهم ومصارف أمورهم وما اختصت به كل فرقة مما يسعدها ويشقيها ويحظيها عند الله ويرد بها أقبل عليه بالخطاب وهو من الالتفات المذكور عند قوله تعالى: (إياك نعبد وإياك نستعين][70].

وهو فن من الكلام جزل، فيه هذه وتحريك من السامع، كما أنك إذا قلت لصاحبك حاكياً عن ثالث لكما: إنّ فلاناً من قصته كيت وكيت، فقصصت عليه ما فرط منه ثم عدلت بخطابك إلى الثالث فقلت: يا فلان من حقك أنْ تلزم الطريقة الحميدة في مجاري أمورك وتستوي على جادة السداد في مصادرك ومواردك نبهته بالتفاتك نحوه فضل تنبيه، واستدعيت إصغاءه إلى إرشادك زيادة استدعاء وأوجدته بالانتقال من الغيبة إلى المواجهة هازاً من طبعه ما لا يجده إذا استمرت على لفظ الغيبة، وهكذا الافتتان في الحديث والخروج فيه من صنف الى صنف يستفتح الآذان للاستمتاع ويستهش الأنفس للقبول)[71]. وهكذا يسترسل الزمخشري في شرح صور الالتفاتات وبيان قيمتها البلاغية وما لها من تأثير على النفس، يقول عند تعرضه لقوله تعالى:
(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)[72]. موضحاً فائدة الالتفات من الخطاب إلى الغيبة (فإن قلت: ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة، قلت: المبالغة كأنه بذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح)[73] .

ومن قوله تعالى : (إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ *وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ][74] . يقول: (لهم: الضمير للناس و عدل بالخطاب عنهم على الطريقة الالتفات للنداء على ضلالتهم، لأنه لا ضال أضل من المقلد، كأنه يقول للعقلاء: أنظروا إلى هؤلاء الحمقى ماذا يقولون)[75]. وفي قوله تعالى: (وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ][76]. يقول: (أولئك هم المضعفون) (التفات حسن)، كأنه قال لملائكته وخواص خلقه: فأولئك الذين يريدون وجه الله لصدقاتهم هم المضعفون، فهو مدح لهم من أن يقول: فأنتم المضعفون)[77]. والزمخشري في تفسيره لهذه الآية يوضح أن الانصراف إلى الغيبة يكون لغرض المدح والثناء ، فكأن المتكلم يروي الأمر لآخرين تعجباً واستعظاماً وكما قد يكون العدول إلى الخطاب إنكاراً على المخاطب، كما في قوله تعالى: (عَبَسَ وَتَوَلَّى* أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى][78]. يوضح الزمخشري ذلك فيقول:(وفي الإخبار عما فرط منه ثم الإقبال عليه بالخطاب دليل على زيادة الإنكار، كمن يشكو للناس جانياً جنى عليه ثم يقبل على الجاني إذا حمى في الشكاية مواجهاً له بالتوبيخ وإلزام الحجة)[79].

ومما يوضح الزمخشري فيه قيمة الالتفات قوله تعالى: (وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ)[80]. إذ يقول : (وأما من قرأ (ألا يتقون) على الخطاب فعلى طريقة الالتفات إليهم وجبههم وضرب وجوههم بالإنكار

---

67. أمرؤ القيس – الديوان – ص 84.
68. الزمخشري – الكشاف – ج1 ، ص 10.
69. سورة البقرة الآية:21.
70. سورة الفاتحة الآية : 4.
71. الزمخشري – الكشاف ، ج1 ، ص 44.
72. سورة الاعراف اية رقم 189.
73. الزمخشري – الكشاف – ج2 ، ص 186.
74. سورة البقرة الآية:169-170.
75. الزمخشري – الكشاف – ج1 ، ص 107.
76. سورة الروم الآية:39.
77. الزمخشري – الكشاف ، ج3- ص 205.
78. سورة عبس الآيات (1-3).
79. الزمخشري – الكشاف- ج 4 ، ص 158.
80. سورة الشعراء الآيتان: (10-11).

والغضب عليهم، كما ترى مَنْ يشكو من ركب جناية إلى بعض أخصائه والجاني حاضر، فإذا أندفع في الشكاية وحرّ مزاجه وحمى غضبه قطع مباثه صاحبه وأقبل على الجاني يوبخه ويعنّف به ويقول له: ألم تتق الله، ألم تستح من الناس)[81]

ومن الالتفات عند الزمخشري أيضاً قوله تعالى : (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)[82]. فقد أشار هنا إلى نوع آخر من الالتفات وهو العدول إلى الاسم الظاهر وما يفيد ذلك من تفخيم للملتفت بقوله: (فإن قلت: هلا قيل: فآمنوا بالله وبي بعد قوله: إني رسول الله إليكم ، قلت: عدل عن المضمر إلى الاسم الظاهر لتجري عليه الصفات التي أجريت عليه ولما في طريقة الالتفات من مزية البلاغة)[83].

أيضاً عند تعرضه لقوله تعالى:(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً)[84] . يقول: (ولم يقل " واستغفرت لهم" وعدل عنه إلى طريقة الالتفات تفخيماً لشأن رسول الله (ρ) وتعظيماً لاستغفره وتنبيهاً على أن شفاعة من اسم الرسول من الله بمكان)[85].

وهكذا يحدد الزمخشري مفهوم هذا الفن ويوضح أقسامه ويبين القيمة البلاغية المستفادة منه، فالسامع ينتقل من أسلوب إلى أسلوب فينشط إصغاؤه واستماعه، وبهذا يدرك الزمخشري أن إيقاظ النفس وتحريكها من أهم أغراض هذا الفن الأدبي.

وقد أخذ عن الزمخشري في هذا المبحث كثير من البلاغيين، منهم أبو يعقوب السكاكي صاحب كتاب (المفتاح)[86]. وضياء الدين بن الأثير الذي تحدث عن القيمة البلاغية للالتفات، وذكر في كتابه (المثل السائر) بعض ما اورده الزمخشري وناقشه فيه، ولكنه لم يلبث أنّ رجع إليه وأخذ منه تحليلاته الفنية الفذة يقول ابن الأثير: (قال الزمخشري رحمة الله عليه: إنّ الرجوع من الغيبة إلى الخطاب إنما يستعمل للتفنن في الكلام والانتقال من أسلوب إلى اسلوب نظرية لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه، فإنّ ذلك دليل على أنّ السامع يمل من أسلوب واحد فينتقل إلى غيره ليجد نشاطاً للاستماع، وهذا قدح في الكلام لا وصف له، لأنه لو كان حسناً لما ملّ)[87].

والملاحظ هنا أنّ ابن الأثير قد حاول أنْ يقلل من عبقرية الزمخشري، فليس إيقاظ السامع وإثارته وتجديد نشاطه دليل على عيب الكلام وقدحه، كما أنّ الزمخشري لم يقف عند هذه العلة وحدها بل ذكر فوائد كثيرة للالتفات، وقد ردد ابن الأثير نفسه ما ذكره الزمخشري، وذلك في مثل قوله: (والذي عندي في ذلك أنّ الانتقال من الخطاب لا يكون إلاّ لفائدة اقتضته، وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من اسلوب إلى أسلوب، غير أنها لا تحد بحد ولا تضبط بضابط، لكن يشار إلى مواضع منها لا يقاس عليها غيرها)[88] . فهذا الذي ذكره ابن الأثير هو ما أشار إليه الزمخشري بقوله بعد ذكر التطرية والإيقاظ: (وقد تختص مواقعه بفوائد)[89] .

وخلاصة القول أنّ ابن الأثير في دراسته لمبحث الالتفات كثيراً ما يذكر كلام الزمخشري ويزيد عليه زيادة لا تعدو أنْ تكون شرحاً له، وذلك في نحو قوله تعالى : (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ][90] . ، فقد شرح الآية مستشهداً بقول تأبط شراً الذي أورده الزمخشري[91].

وقد أشاد صاحب (الطراز) بتحليلات الزمخشري في مبحث الالتفات ومفنداً اعتراضات ابن الأثير ومتهماً له بالعجز عن فهم بلاغة الكشاف، وذلك في قوله: (وما ذكره الزمخشري لا غبار عن وجهه، وهو قول سديد يشير إلى مقاصد البلاغة، وقد زعم ابن الأثير رداً لكلام الزمخشري بوجهين: أحدهما أنه قال: إنما جاز الالتفات من أجل تنشيط السامع، واعتراضه بأن الكلام لو كان فصيحاً لم يكن مملولاً ، وهذا خطأ وجهل بمقاصد البلاغة)[92].

---

[81]. الزمخشري – الكشاف – ج 3- ص 108.
[82]. سورة الأعراف الآية:158.
4.الزمخشري – الكشاف – ج2 ، ص 98.
5. سورة النساء الآية: 64.

[85].الزمخشري – الكشاف – ج2 ، ص 277.

[86]. السكاكي – مفتاح العلوم- ط 1403هـ - 1973م – بيروت – لبنان ، ص 106-107.
[87]. ابن الأثير – المثل السائر – ج2 ، ص 171-172.
[88] المرجع السابق- ج2 ، ص 173.
[89]. الزمخشري – الكشاف – ج1 ، ص12.
[90]. سورة فاطر الآية: 9.
[91]. الزمخشري – الكشاف – ج2 ، ص 181-186.
[92]. العلوي – الطراز – دار الكتب العلمية – بيروت ، ط 1400هـ - 1980م. ج2 ، ص 134-135.

أ. الاستطراد:

الاستطراد: هو أن يخرج المتكلم من الغرض الذي هو فيه إلى آخر لمناسبة بينهما ثم يرجع إلى إتمام الأول[93] كقول السموءل بن عاديا:

وإنا أُناسٌ لا نرى الموت سُبّة إذا ما رأته عامر وسلول
يُقرِّب حُبُ الموت آجالاً لنا وتكرهه آجالـهم فتـطولُ
وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طُلَّ منا حيث كان قتيل[94]

فالقصيدة صياغتها للفخر ولكن الشاعر استطرد منه منتقلاً إلى هجو قبيلتي "عامر وسلول" ثم عاد إلى مقامه الأول وهو الفخر بقومه.

ومنه قول زياد بن الأعجم:

إذا ما اتقى الله الفتى وأطاعه فليس به بأس وإن كان من جرم[95]

فقد أراد الشاعر الوعظ فاستطرد إلى ذم قبيلة جرم[96].

وقد أشار الزمخشري في تفسيره "الكشاف" إلى هذا النوع من المحسنات المعنوية كثيراً، وذلك لبيان مناسبات الجُمل وعلاقة أجزاء الكل ببعضها، فهو عند تعرضه لقوله تعالى: (يسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ][97] يقول: (يجوز أن يجري على طريق الاستطراد لما ذكر أنها مواقيت للحج، لأنه كان من أفعالهم في الحج)[98]

وعند تعرضه لقوله تعالى:(وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا][99] يقول: (ولما ذكر القرآن وإنزاله قال على سبيل الاستطراد: وإذا لقنك جبريل ما يوحى إليك من القرآن فتأن ريثما يسمعك ويفهمك ثم أقبل عليه بالتحفظ بعد ذلك][100].

وفي قوله تعالى: (يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)[101] يقول الزمخشري: (هذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقب ذكر بدو السوءات وخصف الورق عليهما إظهاراً للمنة فيما خلق من اللباس، ولما في العرى وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعاراً بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى)[102].

وعند تعرضه لقوله تعالى:(وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ * لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ)[103]. يقول فإن قلت: (ما موضع الجملتين ؟ أعني "منهم المؤمنون"، "لن يضروكم") قلت: هما كلامان واردان على طريق الاستطراد عند إجراء ذكر أهل الكتاب كما يقول القائل: وعلى ذكر فلان فإن من شأنه كيت وكيت، ولذلك جاء من غير عطف[104].

ب. الكلام الموجه:

هو أن يؤتى بكلام يحتمل معنيين متضادين على السواء كهجاء ومدح ليبلغ القائل غرضه بما لا يُمسك عليه[105]. ويسمى الإبهام أو التوجيه، وقد تعرض الزمخشري لهذا الفن وسماه "القول ذو الوجهين" فعند تفسيره لقوله تعالى:) من الذين هادوا يحرّفون

---

[93]. أحمد الهاشمي – جواهر البلاغة – مكتبة الآداب – الطبعة الثانية – 1426 هـ - 2005م تحقيق حسن نجار محمد . ص 191
[94]. السموءل . الديوان، شرح وتعليق أحمد الفاضل – دار الفكر اللبناني – بيروت الطبعة الأولى 2004م . ص 21
[95]. عبد المتعال الصعيدي – بغية الإيضاح – ج4 – ص 21
[96]. المرجع السابق . ج4 . ص 21
[97]. سورة البقرة . آية رقم "189"
[98]. الزمخشري – الكشاف . ج1 . ص 117
[99]. سورة طه - الآيتان (113 – 114)
[100]. الزمخشري – الكشاف . ج2 . ص 448
[101]. سورة الأعراف – الآية رقم "26"
[102]. الزمخشري – الكشاف، ج2 . ص 59
[103]. سورة آل عمران الآيتان "110 - 111"
[104]. الزمخشري – الكشاف . ج1 . ص 210
[105]. أحمد الهاشمي . جواهر البلاغة – ص 306

الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليّاً بألسنتهم وطعناً في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وأنظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً][106]. يقول: (هو قول ذو وجهين يحتمل الذم أي اسمع منا مدعواً عليك بلا سمعت، لأنه لو أُجيبت دعوتهم عليه لم يسمع فكان أصم غير مسمع .....) ويحتمل المدح أي اسمع غير مسمع مكروهاً، من قولك: اسمع فلان فلاناً إذا سبه، وكذلك قولهم: "راعنا" يحتمل راعنا نكلمك أي راقبنا وانتظرنا، ويحتمل شبه كلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتسابون بها وهي "راعينا" فكانوا سخرية بالدين وهزؤًا برسول الله ﷺ يكلمونه بكلام محتمل، ينوون به الشتيمة والإهانة ويظهرون به التوقير والإكرام .....، فإن قلت: كيف جاءوا بالقول المحتمل ذي الوجهين بعدما صرحوا وقالوا: سمعنا وعصينا ؟ قلت: (جميع الكفرة كانوا يواجهونه بالكفر والعصيان ولا يواجهونه بالسب ودعاء السوء)[107].

ومن الكلام الموجه عند الزمخشري أيضاً وأن تعرض لقوله تعالى: (قال معاذ الله أن نأخذ إلاَّ من وجدنا متاعنا عنده إنَّا إذاً لظالمون)[108].

يقول الزمخشري في ذلك: ("معاذ الله" هو كلام موجه، ظاهره أنه وجب على قضية فتواكم أخذ من وجد الصواع في رحله واستعباده، فلو أخذ غيره كان ذلك ظلماً في مذهبكم، فلم تطلبون ما عرفتم أنه ظلم ؟ وباطنه أن الله أمرني وأوحى إليَّ بأخذ بنيامين واحتباسه لمصلحة أو لمصالح جمة علمها في ذلك، فول أخذت غير من أمرني بأخذه كنت ظالماً وعاملاً على خلاف الوحي)[109].

المحسنات اللفظية:

أ. تأكيد المدح بما يشبه الذم:

أول مَنْ فطن لهذا النوع من البديع هو عبد الله بن المعتز الذي أشار إليه في كتابه "البديع" وجعله من محاسن الكلام وسماه تأكيد المدح بما يشبه الذم[110] وأورد له مثالين هما: قول النابغة الزبياني:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب[111]

ويقول النابغة الجعدي:

فتى كملت أخلاقه غير أنه جواد فما يبقي من المال باقيا[112]

وقد استوفى ابن المعتز بالمثالين السابقين نوعين من هذا الفن، فالمثال الأول قد استثنى فيه من صفة ذم منفية صفة مدح، والمثال الثاني قد أثبت فيه صفة مدح وأتى بعدها بأداة استثناء تلتها صفة مدح أخرى.

وقد ورد هذا النوع من البديع كثيراً في القرآن الكريم، فقد عد الزمخشري منه قوله تعالى: (لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً ولهم رزقهم فيها بُكرةً وعشياً)[113] إذ يقول شارحاً لهذا الأسلوب: (أي إن كان تسليم بعضهم على بعض أو تسليم الملائكة عليهم لغواً، فلا يسمعون لغواً إلا ذلك)[114].

نلاحظ في الآية صفة ذم منفية ثم أتى بعدها بصفة مدح والزمخشري عند تعرضه لقوله تعالى: (قل لا يعلم مَنْ في السموات والأرض الغيب إلاَّ الله وما يشعرون أيَّان يبعثون)[115].

يوضح الزمخشري طريقة الاستثناء بعد النفي فيقول: (فإن قلت: لم رفع اسم الله، والله تعالى أنّ يكون ممن في السموات والأرض ؟ قلت: جاء على لغة بني تميم حيث يقولون: ما في الدار أحد إلاَّ حمار، يريدون ما فيها إلاَّ حمار وكأن "أحد" لم يذكر. وقولهم: ما أتاني زيد إلاَّ عمرو) وما أعانه إخوانكم إلاَّ إخوانه، فإن قلت: ما الداعي إلى اختيار المذهب التميمي على الحجازي ؟ قلت: دعت إليه نكتة سرية حيث أخرج المستثنى مخرج قوله:(إلاَّ اليعافير) بعد قوله: (ليس بها أنيس، ليؤول

---

[106]. سورة النساء . آية رقم "46"
[107]. الزمخشري – الكشاف . ج1 . ص 271 – 272
[108]. سورة يوسف – آية رقم "79"
[109]. الزمخشري – الكشاف . ج2 . ص 269
[110]. ابن المعتز – البديع – ص 164
[111]. النابغة الذبياني – الديوان . المكتبة الثقافية – بيروت – لبنان – ص 11
[112]. ابن قتيبة – الشعر والشعراء – الطبعة الأولى . دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان: ص 191
[113]. سورة مريم – آية رقم "62"
[114]. الزمخشري – الكشاف – ج2 . ص 416
[115]. سورة النمل . آية رقم "65"

المعنى إلى قولك: إنّ كان الله ممن في السموات والأرض استحالة أنّ يكون منهم، كما أنّ معنى "ما في البيت" إن كانت اليعافير أنيساً ففيها أنيس، بتاً للقول بخلوها عن الأنيس)[116].

ب. اللَّف والنَّشر:

يسميه بعض البلاغيين الطي والنشر[117]، وهو ذكر متعدد على التفصيل أو الإجمال ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين، ثقة بأنّ السامع يرده إليه لعلمه بذلك بالقرائن اللفظية أو المعنوية[118]، والمتعدد إما أنْ يكون على جهة التفصيل أو جهة الإجمال، والذي يأتي على وجه التفصيل نوعان:

الأول: أنْ يكون النشر على ترتيب اللف، وذلك بأنْ يكون الأول في النشر يعود على الأول في اللف، والثاني في النشر يعود على الثاني في اللف، والثالث على الثالث وهكذا .....[119].

من ذلك قوله تعالى:(ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى فأمَّا اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأمَّا بنعمة ربك فحدث)[120]. فقوله(فأما اليتيم فلا تقهر) يعود على قوله(ألم يجدك يتيماً فآوى) وقوله تعالى: (وأما السائل فلا تنهر) يعود على قوله تعالى (ووجدك عائلاً فأغنى).

ومنه أيضاً قوله تعالى: (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون)[121]. فقوله تعالى: **"لتسكنوا فيه" يعود على "الليل"** وقوله: "لتبتغوا من فضله" يعود على "النهار".

الثاني: فهو أن يكون النشر على غير ترتيب اللف، ومن ذلك قوله تعالى: (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأمَّا الذين اسودَّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأمَّا الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون)[122]، فقد جاء اللف هنا في قوله تعالى:(يوم تبيض وجوه وتسود وجوه") والنشر في قوله تعالى:(فأمَّا الذين اسودَّت وجوههم" "وأمَّا الذين ابيضت وجوههم) وهنا نلاحظ أن النشر جاء على غير ترتيب اللف، فالأول فيه يعود على الثاني في اللف، والثاني في النشر يعود على الأول في اللف.

ومنه أيضاً قوله تعالى: (وما كان قولهم إلاَّ أن قالوا ربَّنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فأتاهم الله ثواب الدنيا وحُسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين)[123]، فقوله تعالى: (ربَّنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) دعاء جمعوا فيه بين أمري الدنيا والآخرة وهذا يمثل اللف، وقوله تعالى:(فأتاهم الله ثواب الدنيا وحُسن ثواب الآخرة) إجابة للدعاء تمثل النشر، وقد جاءت هذه الآية على غير ترتيب اللف.

ومنه كذلك قوله تعالى: (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً)[124]

، فقد جعل ابتغاء الفضل للنهار وعلم الحساب لليل، وهذا على خلاف الترتيب[125].

أما الذي يأتي على جهة الإجمال: يكون اللف فيه مجملاً والنشر يأتي مفصلاً على حسب اللف، كقوله تعالى: (قالوا لن يدخل الجنَّة إلاَّ مَنْ كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)[126] ، فاللف هنا مجمل في قوله تعالى: "قالوا" والمعنى قالت اليهود لن يدخل الجنَّة إلاَّ مَنْ كان هُوداً، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلاَّ مَنْ كان نصارى، فجاء النشر في الآية مفصلاً على اللف المجمل[127].

---

[116]. الزمخشري – الكشاف – ج3 . ص 149

[117]. أحمد الهاشمي – جواهر البلاغة . ص 33

[118]. عبد المتعال الصعيدي – بغية الإيضاح . ج4 . ص 29

[119]. ابن الأثير – المثل السائر . ج2 . ص 163

[120]. سورة الضحى – الآيات "6 – 11"

[121]. سورة القصص – الآية "73"

[122]. سورة آل عمران – الآيتان "106 – 107"

[123]. سورة آل عمران – الآيتان "147 – 148"

[124]. سورة الإسراء – آية رقم "12"

[125]. ابن الأثير – المثل السائر . ج2 . ص 163 –وما بعدها.

[126].سورة البقرة – آية رقم "111"

[127]. ابن الأثير – المثل السائر . ج2 . ص 163 وما بعدها.

وقد تعرض الزمخشري لمثل هذا النوع من المحسنات المعنوية في كتابه "الكشاف" بنوعيه المجمل والمفصل، فعند تعرضه لقوله تعالى: (وقالوا لن يدخل الجنَّة إلاَّ مَنْ كان هوداً أو نصارى)[128]، يقول: (والمعنى: قالت اليهود لن يدخل الجنة إلاَّ مَنْ كان هوداً، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلاَّ مَنْ كان نصارى، فلف بين القولين ثقة بأن السامع يرد إلى كل فريق قوله، وأمناً من الالتباس لما علم من التعادي بين الفريقين وتضليل كل واحد منهما لصاحبه، ونحوه قوله تعالى:
"وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا[130129].

وفي قوله تعالى: (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير)[131].

يشير الزمخشري إلى ذكر المتعدد على جهة التفصيل والترتيب فيقول:(وهو اللطيف يلطف عن أن تدركه الأبصار والخبير بكل لطف، فهو يدرك الأبصار ولا تلطف عن إدراكه، وهذا من باب اللف)[132].

ويشير إلى ذكر المتعدد من غير ترتيب في قوله تعالى: (ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إنَّ في ذلك لآيات لقوم يسمعون][133].

فيقول: (هذا من باب اللف، وترتيبه: ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار، إلاَّ أنه فصل بين القرينين الآخرين لأنهما زمانان، والزمان والواقع فيه كشيء واحد، من إعانة اللف على الاتحاد)[134].

أ. الإدماج:

هو أن يُضمَّن كلام سبق لمعنى معنى آخر لم يصرح به[135] ، كقول المتنبئ:

أقلب فيه أجفاني كأني أعُدَّ بها على الدهر الذنوبا[136]

فقد ساق الشاعر الكلام هنا لبيان طول الليل وأدمج الشكوى من الدهر في وصف الليل بالطول.

وقد أشار الزمخشري إلى هذا النوع من المحسنات في مثل قوله تعالى: (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل مَنْ أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعُلِّمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون][137]. إذ يقول: (والقائلون هم اليهود بدليل قراءة مَنْ قرأ "تجعلونه" بالتاء، وكذلك "تبدونها" و "تخفون" وإنما قالوا ذلك مبالغة في إنكار إنزال القرآن على رسول الله ﷺ، فألزموا ما لابد لهم من الإقرار به من إنزال التوراة على موسى عليه السلام وأدرج تحت الإلزام توبيخهم، وأن نعى عليهم سوء جهلهم لكتابهم وتحريفهم وإبداء بعض وإخفاء بعض، فقيل: "جاء به موسى" وهو نور وهدى للناس حتى غيروه ونقصوه وجعلوه قراطيس مقطعة وورقات مفرقة، ليتمكنوا مما راموا من الإبداء والإخفاء)[138].

ب. المشاكلة "لزوم ما لا يلزم":

وهي أنّ يذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً[139] ومثال ذلك قول أبو تمام:

من مبلغ أفناء يعرب كلها إني بنيت الجار قبل المنزل[140]

فقول الشاعر "بنيت الجار" شاكل به "قبل المنزل".

وقد تحدَّث الزمخشري عن هذا النوع عن تعرضه لقوله تعالى: (إنَّ الله لا يستحي أنّ يضرب مثلاً مَّا بعضة فما فوقها فأمَّا الذين آمنوا فيعلون أنه الحق من ربهم وأمَّا الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يُضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يُضل به إلاَّ

---

[128]. سورة البقرة – آية رقم "111"
[129]. سورة البقرة – آية رقم "135"
[130]. الزمخشري – الكشاف . ج1 . ص 88
[131]. سورة الأنعام – آية رقم "103"
[132]. الزمخشري – الكشاف - ج2 . ص 32
[133]. سورة الروم – آية رقم "23"
[134]. الزمخشري – الكشاف – ج3 . ص 201
[135]. عبد المتعال الصعيدي – بغية الإيضاح – ج4 . ص 53
[136]. المتنبئ – الديوان . تحقيق عبد الرحمن البرقوقي الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان – ج1 . ص 273
[137]. سورة الأنعام – آية رقم "91"
[138]. الزمخشري – الكشاف – ج2 . ص 26 - 27
[139]. عبد المتعال الصعيدي – بغية الإيضاح – ج4 . ص 18
[140]. أبو تمام – الديوان – شرح الخطيب التبريزي . تحقيق محمَّد عبده عزام . دار المعارف الطبعة الرابعة – ج3 . ص 116

الفاسقين][141]. إذ يقول: (ويجوز أن تقع هذه العبارة في كلام الكفرة، فقالوا: أما يستحي رب محمد أن يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت ؟ فجاءت على سبيل المقابلة وإطباق الجواب على السؤال، وهو من فن كلامهم بديع وطراز عجيب).

وشهد رجل عند (شريح) فقال: (إنك لسبط الشهادة، فقال الرجل: إنها لم تجعَّد عني، فقال: لله بلادك وقبل شهادته وهذا من باب المشاكلة، ولولا سبوطة الشهادة لأمتنع تجعيدها، ولله در أمر التنزيل وإحاطته بفنون البلاغة وشعبها لا تكاد تستغرب منها فناً إلاَّ عثرت عليه فيه على أقوام مناهجه وأسد مدارجه)[142].

فالمشاكلة بإذن في قوله تعالى: "إن الله لا يستحي" وهي ذكر الشيء بلفظ غيره المقدر ذكره، لأن قولهم: أما يستحي رب محمد ؟ غير مذكور في الكلام.

أما قول أبي تمام فالمشاكلة فيه بين "بناء الجار" و"بناء المنزل" وهو مذكور في الكلام، وعلى هذا تكون المشاكلة من النوع الأول "المحقق" وكذلك قول الشاهد: "إنها لم تجعَّد عني"، وذلك لأن المشاكلة بين اللفظ المذكور وهو "سبط الشهادة" والمعنى أنه مستمر في حفظ الشهادة وقبولها دائماً، والسبوط في الأصل انطلاق الشعر وامتداده، وعكسه التجعيد[143].

وقد جعل الزمخشري من المشاكلة أيضاً قوله تعالى: (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون)[144]. إذ يقول: (المعنى تطهير الله لأن الإيمان يطهر النفوس، والأصل فيه: أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية ويقولون هو تطهير لهم، وإذا فعل واحد منهم بولده ذلك قال الآن صار نصرانياً حقاً، فأمر المسلمين بأن يقولوا لهم: قولوا آمنا بالله وصبغنا الله بالإيمان صبغة لا مثل صبغتنا، وطهرنا به تطهيراً لا مثل تطهيرنا، أو يقول المسلمون: صبغنا الله بالإيمان صبغة ولم نصبغ صبغتكم، وإنما جيء بلفظ الصبغة على طريقة المشاكلة، كما تقول لمن يغرس الأشجار: اغرس كما يغرس فلان، تريد رجلاً يصطنع الكلام)[145].

ومما أورده كذلك الزمخشري من طريق المشاكلة قوله تعالى: (وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنتُ قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علاَّم الغيوب)[146].

إذ يقول: (والمعنى: تعلم معلومي ولا أعلم معلومك، ولكنه سلك به طريق المشاكلة، وهو من فصيح الكلام وبينه، فقيل: "في نفسك" لقوله: "في نفسي")[147]

أ. التفصيل:

أشار الزمخشري في كتابه "الكشاف" إلى هذه الطريقة مبيناً قيمتها البلاغية في أداء المعنى، فقد تفيد هذه الطريقة التعظيم، وقد أورد الزمخشري منه قوله تعالى: (فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأُذوا في سبيلي وقاتلوا وقُتلوا لأُكفرنَّ عنهم سيئاتهم ولأُدخلنَّهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حُسن الثواب)[148]. إذ يقول الزمخشري: ("أما الذين هاجروا" تفصيل لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم له والتفخيم، كأنه قال: فالذين عملوا هذه الأعمال السنية الفائقة وهي المهاجرة عن أوطانهم فارين إلى الله بدينهم)[149].

وقد تفيد هذه الطريقة أحياناً تقوية المعنى وإثباته، وذلك بإجماله أولاً حتى تتهيأ النفس لمعرفة تفصيله، فقد جعل الزمخشري من ذلك قوله تعالى: (قال رب أشرح لي صدري ويسر لي أمري)[150] إذ يقول: (فإن قلت "لي" في قوله: " أشرح لي صدري ويسر لي أمري " ما جدواه والكلام بدونه منتسب؟ قلت: قد ابهم الكلام أولاً فقيل: اشرح لي ويسر لي، فعلم أن ثم

---

141. سورة البقرة – آية رقم "26"
142. الزمخشري – الكشاف – ج1 . ص 55
143. عبد المتعال الصعيدي – بغية الإيضاح – ج4 . ص 19
144. سورة البقرة – آية رقم "38"
145. الزمخشري – الكشاف – ج1 . ص 98
146. سورة المائدة – آية رقم "116"
147. الزمخشري – الكشاف – ج1 . ص 541
148. سورة آل عمران – آية رقم "195"
149. الزمخشري – الكشاف – ج1 . ص 238
150. سورة طه – الآيتان "25 – 26"

مشروحاً وميسراً، ثم بين ورفع الإبهام بذكرهما فكان أكد لطلب الشرح والتيسير لصدره وأمره من أنّ يقول: اشرح صدري ويسر أمري على الإيضاح الساذج، لأنه تكريم للمعنى الواحد عن طريق الإجمال والتفصيل)[151].

ويشير الزمخشري أيضاً إلى أن أحد أقسام التفصيل قد يكون داخلاً في الآخر ولكنه يذكر قسيماً له لتخصيص معناه بشيء، وبذلك يصبح القسم قسيماً، فعند تعرضه لقوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين)[152]. يقول الزمخشري في ذلك: (وفصل المستهزئين بأهل الكتاب والكفار، وإن كان أهل الكتاب من الكفار، إطلاقاً للكفار على المشركين خاصة)[153].

ويشير إلى حذف أحد أقسام المفصل أو التفصيل في مثل قوله تعالى: (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومَنْ يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً فأمَّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأمَّا الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً][154]، فيقول: (فإنّ قلت: التفصيل غير مطابق للمفصل لأنه اشتمل على الفريقين والمفصل على فريق واحد قلت: هو مثل قولك: جمع الإمام الخوارج، فمن لم يخرج عليه كساه وحمله، ومن خرج عليه نكَّل به، وصحة ذلك لوجهين: أحدهما أنْ يحذف ذكر أحد الفريقين لدلالة التفصيل عليه، ولأن ذكر أحدهما يدل على ذكر الثاني، كما حذف أحدهما في التفصيل في قوله عقيب هذا: "فأمَّا الذين آمنوا بالله واعتصموا به"، والثاني: وهو أنّ الإحسان إلى غيرهم مما يغمهم فكان داخلاً في جملة التنكيل بهم، فكأنه قيل: ومَنْ يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيعذب بالحسرة إذا رأى أجور العاملين وبما يُصيبه من عذاب الله)[155].

ب. الجناس:

هو تشابه الكلمتين في اللفظ واختلافهما في المعنى، ويسمى أيضاً التجانس والتجنيس، وهو من فنون البديع اللفظية التي ذاعت في القرن السادس، ومن أولئك الذين فطنوا إليه عبد الله بن المعتز[156]. والجناس ينقسم إلى قسمين: تام وغير تام، فالجناس التام: هو ما اتفق فيه اللفظان في أربعة أمور هي: نوع الحروف أو عددها وهيئتها وترتيبها. أما الجناس الغير تام: فهو ما اختلف فيه اللفظان في واحد من الأمور الأربعة السابقة.

فمن الجناس التام قول أبي تمام:

ما مات من كرم الزمان فإنه يحيا لدى يحيى بن عبد الله[157]

نلاحظ الجناس التام بين كلمتي "يحيى" و "يحيى" أما الجناس الغير تام، فمنه قول الخنساء:

إنّ البكاء هو الشفاء من الجوى بين الجوانح[158]

نلاحظ الجناس الغير تام بين (بكاء-شفاء) وبين (الجوى – الجوانح) وقد تعرض الزمخشري لهذا الفن عند تفسيره لآي الذكر الحكيم، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: (وتولى عنهم وقال يا أسفي على يوسف وابيضَّت عيناه من الحزن فهو كظيم)[159] يقول: (التجانس بين اللفظين "الأسف ويوسف" مما يقع مطبوعاً غير متعمل يلمح ويبدع)[160] ونحوه. قوله تعالى: (اثَّاقلتم إلى الأرض أرضيتم][161] " اثَّاقلتم. أرضيتم" قوله تعالى: (وهم ينهون عنه ويناءون عنه][162] "ينهون وينأون" وقوله تعالى: (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً][163] "يحسبون ويحسنون" وقوله تعالى: (من سبأ بنبأ][164] "سبأ ونبأ"[165].

---

[151]. الزمخشري – الكشاف – ج2 . ص 432

[152]. سورة المائدة – آية رقم "57"

[153]. الزمخشري – الكشاف – ج1 . ص 347

[154]. سورة النساء – الآيتان "172 - 173"

[155]. الزمخشري – الكشاف – ج1 . ص 318 – 319

[156]. ابن المعتز – البديع . ص 25

[157]. أبو تمام – الديوان . شرح الخطيب القزويني . تحقيق محمد عبده عزام . دار المعارف – مصر . الطبعة الثالثة 1951م . ج1 . ص 347

[158]. الخنساء – الديوان . شرح أبي العباس ثعلب . دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان 2005م . ص 192

[159]. سورة يوسف – آية رقم "84"

[160]. الزمخشري – الكشاف . ج2 . ص 271

[161]. سورة التوبة – آية رقم "38"+

[162]. سورة الأنعام – آية رقم "26"

[163]. سورة الكهف – آية رقم "104"

[164]. سورة النمل – آية رقم "22"

[165]. الزمخشري – الكشاف – ج2ص 271

والزمخشري عندما يتحدث عن هذا النوع البديعي ووقوعه في القرآن الكريم يشير إلى أنه يأتي مطبوعاً غير متكلف فيحسن ويبدع لفظاً ومعنىً، فعند تعرضه لقوله تعالى: (فمكث غير بعيد فقال أحطتُ بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين][166] يقول: (وقوله "من سبأ بنبأ" من جنس الكلام الذي سماه المحدثون البديع، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق باللفظ، بشرط أن يجيء مطبوعاً أو يضعه عالم بجوهر الكلام، يحفظ معه صحة المعنى وسداده، وقد جاء ههنا زائداً على الصحة فحسن وبدع لفظاً ومعنىً، ألا ترى أنه لو وضع مكان "بنبأ" "بخبر" لكان المعنى صحيحاً، وهو كما جاء أصح، لما في النبأ من الزيادة التي يطابقها وصف الحال)[167].

ج. الازدواج:

هو تجانس اللفظين المتجاورين نحو: من جدَّ وجَدَ، ومن لجَّ ولجَ[168]. والازدواج عند البلاغيين ليس فناً بديعياً مستقلاً بنفسه، فقد أشار إليه الخطيب القزويني في دراسته للسجع إذ يقول: (وأعلم أن فواصل الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز موقوفاً عليها لأن الغرض أن يزاوج بينهما)[169] ويقول: (وإذا رأيتهم يخرجون الكلمة عن أوضاعها للازدواج في قولهم "إني لآتية بالغدايا والعشايا" أي بالغدوات)[170]. وقد أشار الزمخشري إلى هذا النوع من المحسنات اللفظية وهو يعني به توافق آخر الكلمات في النطق، فعند تعرضه لقوله تعالى: (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا)[171] يقول: (وقرأ الأعمش: "ولا يغوثا ويعوقا" بالصرف، وهذه قراءة مشكلة لأنهما إن كانا عربيين أو أعجميين ففيهما سبب منع الصرف، وإما التعريف ووزن الفعل وإما التعريف والعجمة، ولعله قصد الازدواج فصرفهما لمصادفته أخواتهما منصرفات "ودًا وسواعاً ونسراً")[172].

الخاتمة

مما لاشك فيه يُعد علم البديع من العلوم التي لها قيمة متفردة من بين علوم البلاغة. وعكف على دراسته علماء أجلاء أمثال ابن المعتز في مؤلفه "البديع".

ولعلي قد قمتُ في هذه الورقة البحثية بتعريف علم البديع لغة واصطلاحاً وتعرضت كذلك للبديع عند الزمخشري، فكان هذا في الفصل الأول. أما في الفصل الثاني قد تعرضت للطباق والمقابلة والالتفات والاستطراد والكلام الموجه، فقد رأينا كيف كان الزمخشري يفسر النصوص القرآنية بذكاء وعمق وتحليل وإبداع واستخراج هذه الأنواع من آيات القرآن الكريم. وقد تحدثت عن تأكيد المدح بما يشبه الذم واللف والنشر والإدماج والمشاكلة والتفصيل والجناس والازدواج ولعل الزمخشري أبدع في إضافة بعض الألوان في علم البديع مثل الازدواج والالتفات وغيرها. مما يُعد تفرداً خاصاً به. ولقد وقفنا على تطبيق ذلك على آي القرآن الكريم.

النتائج والتوصيات

أولاً النتائج:

1. أول من ألّف في علم البيان هو الجاحظ ومؤلفه هو (البيان والتبيين) في علم البديع وفي علم البديع ابن المعتز له كتاب (البديع) ، وفي علم المعاني عبد القاهر الجرجاني له كتاب بعنوان (دلائل الاعجاز) وهو في علم المعاني.
2. إنّ نشأة علوم البلاغة في بدايتها كانت تختلط موضوعاتها ومازالت البحوث مستمرة في تفصيلاتها حتي اليوم .
3. فقد أعدّ الزمخشري علم البديع من القشور ومع ذلك أضاف نماذج لم تكن معروفة من قبله مثل الازدواج والالتفات .
4. لم يتعرض الزمخشري لكل فنون علم البديع مثل التورية وحسن التعليل إلي غير ذلك.
5. أعتمد الزمخشري في تفسيره في آي القرآن الكريم علي الذكاء وعمق التحليل والابداع .

ويوصي الباحث بالاطلاع علي آي القرآن الكريم لما فيها من بعد وفنون بلاغية.

---

166. سورة النمل – آية رقم "22"
167. الزمخشري – الكشاف – ج3 . ص 139
168. أحمد الهاشمي – جواهر البلاغة . ص 325
169. عبد المتعال الصعيدي – بغية الإيضاح . ج4 . ص 81
170. المرجع السابق – ج4 . ص 81
171. سورة نوح – آية رقم "23"
172/ الزمخشري – الكشاف . ج4 . ص 143 - 144

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم .

ثانياً: المصادر والمراجع العربية:

1. **أسرار البلاغة** – عبد القاهر الجرجاني – مكتبة القاهرة. الطبعة الثالثة 1399هـ - 1979م.
2. **الأغاني** – أبو الفرج الأصفهاني – دار المكتبة العلمية . بيروت.
3. **البديع** – ابن المعتز – تحقيق كراتشوفكسي . ط3 . 1983م دار الخيرة . بيروت.
4. **البديع** – لغة الموسيقى والزخرف . د/ مصطفى الصاوي الجويني . 1993م دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية.
5. **بغية الإيضاح لتخليص المفتاح** – مكتبة الآداب . الطبعة 1997م.
6. **البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري** – محمد محمد أبو موسى . الطبعة الثالثة . 1408هـ - 1988م . مطبعة وهبة . القاهرة.
7. **البلاغة تطور وتاريخ** – شوقي ضيف . الطبعة السابعة . دار المعارف القاهرة . 1965م.
8. البيان والتبيين – الجاحظ – تحقيق عبد السلام محمد هارون – مكتبة الخانجي القاهرة . الطبعة . 1405هـ - 1985م.
9. **جواهر البلاغة** – أحمد الهاشمي – مكتبة الآداب – الطبعة الثانية 1426هـ - 2005م.
10. **الديوان** – أبو الطيب المتنبئ – دار الكتاب العربي - بيروت – لبنان.
11. **الديوان – أبو تمام** – شرح الخطيب التبريزي – دار المعارف – مصر . الطبعة الرابعة.
12. **الديوان – الخنساء** – دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان . 2005م.
13. **الديوان – السموءل** – دار الفكر اللبناني – بيروت – ط1 . 2004م.
14. **الديوان – النابغة الذبياني** – المكتبة الثقافية . بيروت.
15. **الديوان – امرؤ القيس** – دار صادر . بيروت . 2005م.
16. **سر الفصاحة** – ابن سنان الخفاجي – مطبعة صبيح.
17. **شروح التلخيص** . الخطيب القزويني . مطبعة الحلبي.
18. **الشعر والشعراء** – ابن قتيبة . دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.
19. **الصناعتين** – أبو هلال العسكري – مطبعة الحلبي . القاهرة . 1971م.
20. **الطراز . العلوي** – دار الكتب العلمية – بيروت . 1400هـ - 1980م.
21. **علم البديع – عبد العزيز عتيق** . دار النهضة العربية . 1405هـ - 1985م.
22. **العُمدة في محاسن الشعر وآدابه** – ابن رشيق القيرواني . دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى . 1922هـ - 2001م.
23. **القرآن الكريم**.
24. **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل** – الزمخشري – دار المعرفة . بيروت . لبنان.
25. **لسان العرب** – ابن منظور – دار صادر – بيروت.
26. **المثل السائر** – ضياء الدين بن الأثير – المكتبة العصرية . صيدا . بيروت.
27. **مفتاح العلوم** – السكاكي . بيروت . لبنان.
28. **منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه** . د/ مصطفى الصاوي الجويني . الطبعة الثالثة – دار المعارف . عين شمس - مصر.
29. **نقد الشعر** – قدامة بن جعفر . تحقيق كمال محمد مصفى – الطبعة الأولى . مكتبة الخانجي. مصر .